السَّيْلُ

قصة تمثيليَّة للكاتب الفرنسي «موريس دونيه»

وأي السيلين أراد؟ ذلك الذي نحسه ونراه ونحبه ونخشاه؛ نحبه لأنه رائع مهيب يمثل ناحية من جمال الطبيعة الرائعة المهيبة، ونخشاه لأنه يعرضنا للخطر أحيانًا حين يغشانا ولا ننتظره، وحين يدفعنا ولا نستطيع له مقاومة؟ أما هذا السيل الذي لا نحسه ولا نراه، بل لا نشعر به، وهو يغمرنا في كل وقت ويدفعنا في كل لحظة دفعًا عنيفًا لا رحمة فيه ولا إشفاق حتى تتم كلمة القضاء؟ أي السيلين أراد! أهذا السيل المادي الذي ينحط من شعاف الجبال فلا يذر شيئًا أتى عليه إلا اكتسحه، ولكن العقل الإنساني يستطيع مع ذلك أن يدبره ويسخره لمنافعه؟ أم هذا السيل المعنوي الذي لا سبيل للعقل عليه، وربما لم يشعر به العقل ولم يفرض له وجودًا إلا حين لا ينفع الشعور به ولا التفكير فيه؟ أأراد هذا السيل من الماء؟ أم أراد هذا السيل من قوانين الحياة التي لا مردَّ لها ولا منصرف عنها؟

أي السيلين أراد؟ فالقصة تمثل السيلين؛ فيها السيل المادي، عنيفًا خطرًا، ينحط من أعلى الجبل في قوة وعنف، فيراه الناس على اختلاف منازلهم من العلم والجهل، ومن الذكاء والغباء، ومن رقة الشعور وصفاقته، فيتأثرون له وينتفعون به على مقدار ما أوتوا من ذكاءٍ وغباءٍ، ومن علمٍ وجهلٍ، ومن رقةٍ وكثافةٍ. يراه العالم فيعلله ويسخِّره، ويراه الجاهل فيخافه ويخشاه، ويراه الشاعر فيعجَب به ويتغنى بروعته، وفيها هذا السيل المعنوي الذي لا تراه العين ولا يدركه الحس، ولا يستطيع أن يسخِّره عالم ولا أن يخشاه جاهل، ولا أن يفر منه إنسان. فيها سيل الحياة وقوانينها الصارمة التي يخضع لها

كل شيء دون أن تخضع لشيءٍ. فيها هذان السيلان، وهو يريد هذين السيلين، يمثلهما وينتفع بهما، فلست أعرف قصة عنيفة كهذه القصة، ولست أعرف قصة محزنة كهذه القصة، ولست أعرف قصة موئسة كهذه القصة؛ فهي عنيفة، محزنة، موئسة؛ قد بلغت من العنف، والحزن، واليأس أقصاها. وهي لا تخلو من ابتسام، ولكنه ابتسام المغرور. وهي لا تخلو من ضحك الجاهل المخدوع. هي قصة موئسة، والشر كل الشر أنها قصة صادقة برئت البراءة كلها من الغلو والإسراف.

زعموا أن «لامرتين» دعا إليه الكاتب الفرنسي المشهور «فلوبير» عندما نشر قصته «مدام بوفاري»، فلامه لأنه أبكاه بهذه القصة، وكل إنسان يشعر ويفكر ويحسن الشعور والتفكير يستطيع أن يصنع مع كاتب هذه القصة التي نتحدث عنها اليوم ما صنعه «لامرتين» مع «فلوبير»، فيلومه لأنه أبكاه. وكذلك نحن، فطرنا ضعافًا، نؤْثر الغفلة والغرور والجهل والانخداع على أن نعلم بالحقائق كما هي، وننظر إليها مجردة في صورها الصحيحة الصادقة. نحن ضعاف نكره العلم ونخشاه؛ لأننا أضعف من أن نحتمله. ونؤثر الظلمة ونهواها؛ لأن أبصارنا أضعف من أن تثبت للضوء. ونحب أن نظل مخدوعين لأن ظهورنا على الحق يوئسنا ويثنينا عن العمل ويزهدنا في الحياة، وربما بغَّضها إلينا. ومن يدري! لعل الخير كل الخير في أن نكون جاهلين مخدوعين، فلولا الجهل والانخداع ما عمل الناس ولا أمَّلوا ولا أحبوا. وأي شيءٍ هي الحياة وما فيها من عظيم لولا العمل والأمل والحب! لعل الخير كل الخير في أن نجهل أنفسنا، وفي أن نجهل هذه القوانين التي تسيطر عليها، ولعل هؤلاء الفلاسفة والكُتَّاب الذين يُكرهون الناس على أن يفتحوا أعينهم وينظروا فيما حولهم، لعل هؤلاء الفلاسفة والكُتَّاب مخطئون يسيئون إلى الإنسان أكثر مما يحسنون إليه. أيهما خير: العلم أم الجهل؟ مسألة ليس إلى حلها من سبيل. في العلم رقي الإنسان وشعوره بنفسه، ولكن فيه يأسًا وضعفًا وزهدًا في الحياة، وفي الجهل انحطاط الإنسان واتصاله بغيره من هذه الكائنات التي لا تقدر نفسها ولا تعرف للوجود خطرًا، ولكن فيه أملًا وعملًا وإقدامًا. أيهما خير؟ …

في هذه القصة — كالقصة التي حدثتك عنها في الأسبوع الماضي — جهاد عنيف بين الأمومة والحب، وفيها جهاد آخر ليس أقل عنفًا، ينشأ بين العقل والدين، وأنت تشهد هذا الجهاد فيعجبك ثم يسحرك، وإذا أنت مقسم بين هذين الطرفين اللذين يتجاهدان، وإذا أنت لا تدري إلى أيهما تميل، وإذا أنت مضطرب أشد الاضطراب، شاكٌّ أشد الشك؛ لأن الجهاد ليس متكلفًا ولا مصطنعًا، وليس من اليسير عليك أن تحكم فيه هادئًا مطمئنًّا غير

متأثر، وإنما الجهاد طبيعي يكوِّن جزءًا من فطرتك وحياتك، أو هو كل فطرتك وحياتك. فالإنسان بطبعه متأثر بعاطفة الأمومة والأبوة، هذه العاطفة التي تصله بمن قبله ومن بعده والتي تكوِّن النوع، والإنسان بطبعه متأثر بعاطفة الحب، وكثيرًا ما تصطدم هاتان العاطفتان، ثم الإنسان بطبعه متدين، والإنسان بطبعه عاقل، وكثيرًا ما يصطدم العقل والدين، ولسنا نعني الآن بهذا الجهاد الذي يقع بين العقل والدين في المسائل النظرية، هذا الجهاد الذي يعني الفلاسفة وعلماء الدين؛ فليس لهذا الجهاد خطر يذكر إلى جانب جهاد آخر بين العقل والدين، يقوم في النفس الواحدة ويضطرها إلى طائفة من الآلام قد تنتهي بها إلى اليأس. هذا هو الجهاد الذي يُعنى به الكاتب في هذه القصة، وأنا أحس أنك لم تفهمه كما ينبغي؛ لأني لم أوضحه كما ينبغي، فلتوضحه لك القصة نفسها؛ فلست أريد أن أطيل في شرحها ولا في تفسيرها، وإنما أريد أن تُفسِّر لك القصة نفسها بنفسها، كما يقولون.

نحن في إقليم من أقاليم فرنسا الوسطى، في قصر من قصور الأقاليم فخم، كل شيءٍ فيه يدل على الثروة والترف، ومن حوله أرض واسعة ليست بالمهملة ولا قليلة الإنتاج، وإنما يدل كل شيءٍ على أنها خِصْبة، يستغلها صاحبها استغلالًا قويًّا منتجًا، ونحن نشهد في هذا القصر رجالًا وامرتين قد انصرفوا عن مائدة العشاء وأقبلوا على سمرهم، فلنعرفهم؛ فقد خصص الكاتب الفصل الأول من قصته ليقدم إلينا هؤلاء الناس، وأولهم صاحب القصر «جوليان فرسان»، وهو شاب مستوي السن مكتمل القوى، شديد الذكاء، عظيم الحظ من النشاط. نشأ في باريس، وعاش عيشة شبانها الأغنياء، وتزوج فتاة هي «شارلوت»، جميلة خلابة حادة الذهن، ولكن حظها من التعليم قليل، بل نستطيع أن نقول إن حظها من التعليم سيئٌ؛ فلم تُؤثِّر المدرسة في عقلها ولا في شعورها، وإنما علمتها طائفة من الأشياء يحتاج إليها أمثالها من الفتيان والفتيات اللاتي سيعشن عيشة الترف، وسيقضين الحياة في لهو ونعيم، يزرن ويستقبلن الزائرين، ويختلفن إلى المراقص وملاعب التمثيل، ويُعنَيْنَ بالزينة والحياة الظاهرة، أكثر مما يعنين بغيرهما من الأشياء.

تزوج «فرسان» هذه الفتاة، ولم يمض على زواجهما أشهر حتى مرض له عم كان يقيم في هذا القصر، فدعاه إليه فأقبل، وإذا عمه مشرفٌ على الموت، فأوصاه ألا يبيع القصر والأرض ولا يؤجرهما، واستحلفه على ذلك، فحلف مشفقًا على الشيخ المحتضَر. فلما مات الشيخ انصرف الشاب إلى هذه الأرض يستغلها ويثمرها، وأقام في هذا القصر. وما هي

إلا أن أحب حياته الجديدة ونشط لها وكلِف بها، ثم كانت نتيجة عمله ونشاطه مشجعة له على هذه الحياة؛ فقد أثمرت أرضه ثمرًا حسنًا، وأخذت ثروته تنمو وتضخم. انصرف هو إلى هذه الحياة، ولكن امرأته لم تفهمها ولم تمِل إليها، وعاشت في الأقاليم على نحو ما كانت تعيش في باريس، وهي متأثرة بكل ما يتأثر به أمثالها من المترفات في باريس: تحبُّ اللذة واللهو ولا تُؤْثِر عليهما شيئًا آخر، تحب زوجها ولكن على أن يكون وسيلتها إلى هذه اللذة وهذا اللهو، لا تحب الواجب ولا تريد أن يُذكر لها؛ لأنها لا تفهمه بل لا تعرفه، هي تكره مثلًا أن تكون أُمًّا، وتكره أن يتحدث الناس إليها في ذلك؛ لأن الأمومة تَصرِفها عن اللذة وتعرِّضها لآلام شاقة خطرة، ولا ينبغي أن تذكر لها حاجة وطنها إلى النسل فهي لا تفهم ذلك، وماذا يعنيها أن يحتاج وطنها إلى النسل؟ وماذا يعنيها أن تنتصر الأمم الأخرى على أمتها في الجهاد الاقتصادي؟ فهي لا تفهم الجهاد الاقتصادي ولا نتائجه، على أن نتائج هذا الجهاد إن كانت شرًّا فلن تمسها؛ فهي غنية مطمئنة إلى ثروتها، ولن تخلو فرنسا من السكان اليوم ولا غدًا، وإنما سيكون ذلك بعد زمن طويل؛ أي بعد أن تموت، وإذن فما يضرها أن تخلو فرنسا من السكان أو أن تكتظ بهم بعد أن تموت هي؟

ثم في القصر جاران لهذين الزوجين؛ هما «كميل لمبير» وامرأته «فلنتين»، ليسا أقل تناقضًا واختلافًا فيما بينهما من جاريهما اللذين وصفتهما لك؛ فأما الزوج فشاب ذكي ماهر في تثمير الثروة، ولكنه عملي، وعملي ليس غير، ليس له حظ من الشعور، ولا يفهم أن في الحياة مُثلًا عليا تطمح إليها النفوس الراقية، أو هو يفهم ذلك، ولكن مثله الأعلى ضيق محدود منحط، هو صورة لمطامعه المادية لا أكثر ولا أقل. لا تذكر له الحب؛ فهو لا يفهمه. ولا تذكر له الجمال؛ فهو لا يشعر به. أما المرأة فوسيلة إلى إحدى اثنتين: وسيلة إلى إرضاء الحاجة المادية ما دام الإنسان شابًّا غير مسئول، ثم وسيلة إلى تأسيس الأسرة يوم يصبح الإنسان رجلًا مسئولًا. وهو قد اتخذ المرأة وسيلة لهذين الغرضين.

كان طالبًا يدرس في باريس، فاتخذ الخليلات والإخوان ليلهو ويلذ، واشتدت الصلة بينه وبين واحدة منهن، فكان لهما ولد من هذه الصلة، ثم فرغ من درسه ورجع إلى إقليمه؛ ليخلف أباه في العمل وليؤسس لنفسه أسرة، فترك صاحبته وابنها وكأنهما لم يوجدا، وماتت هذه المرأة موتًا شنيعًا في أحد المستشفيات، وتعرض ابنها للفقر والفاقة، وعلم أبوه ذلك فلم يحفل به ولم يلتفت إليه. ثم تزوج لا لأنه كان يحب خطيبته أو يُعْجَب بجمالها؛ بل لأنها كانت غنية من جهة، ولأنه كان يريد الولد من جهة أخرى. وقد حملت إليه امرأته الثروة وأتته بصبيين ذكر وأنثى، فأدرك كل ما كان يريد، وانصرف عن زوجه

الانصراف كله، وقدَّر أن واجبه إنما هو تثمير ثروته، وأن واجب امرأته إنما هو تربية هذين الصبيين، ولكن امرأته رُكِّبت تركيبًا آخر وفُطِرَتْ فِطْرة أخرى؛ ففيها ذكاء وفهم، ولكن فيها قبل كل شيء شعورًا قويًّا دقيقًا وعواطف حادة متقدة، وهي تفهم الحياة على نحو آخر؛ فليست الحياة عندها تثمير الثروة، ولا تأسيس الأسرة كما يحددها القانون، وإنما الحياة عندها شيءٌ أرقى من هذا؛ الحياة عندها حب وعطف وحنان ولذَّة، قوامها هذا الحب والعطف والحنان. لها في الحياة مثل أعلى يخالف كل المخالفة ما هي فيه من طعام وشراب ونوم وعناية بالأعمال اليومية. ليست الحياة مقصورة على الجسم وما يتصل به من الغرائز، وإنما هي تتناول القلب وما له من شعور وعاطفة. تريد أن تحب، وأن تجد من يحبها. وهي لا تكتفي بحب ابنيها؛ فإن الأمومة عاطفة شديدة التأثير في المرأة، ولكنها ليست حياة المرأة كلها إلا في أوقات خاصة يتعرض فيها الأبناء للخطر.

وليست هناك امرأة هادئة تستطيع أن تتعزى بأمومتها وحب أبنائها عن هذه العاطفة الطبيعية التي نسميها الحب، هي إذن تريد أن تحب، وتريد أن تجد من يحبها، وهي لا تحب زوجها ولم تحبه قط، ولم تتخذه زوجًا لها إلا لأن أبويها اضطراها إلى ذلك. وزوجها لا يحبها ولم يحْببها قط، ولم يتخذها زوجًا إلا لأنه كان في حاجة إلى مالها، ولأنها كانت تكفي لترزقه هذين الصبيين، ولكن هناك فرقًا آخر عظيمًا بين هذين الزوجين؛ فأما الرجل فسعيد راض بحياته، يرى أنه قد بلغ أقصى ما كان يريده من الأماني، ويرى أن ليس لأحد أن يطمع في خيرٍ مما وصل إليه، أما امرأته فشقية تَعِسة، تفكر دائمًا في مثلها الأعلى، وتشعر دائمًا بحاجتها إليه وبأنه لم يُتَحْ لها. وزوجها لا يحس منها هذا الشقاء، ولو أحسه لما فهمه، والأمر على هذا النحو بين الزوجين الآخرين اللذين وصفتهما لك منذ حين. «ففرسان» سعيدٌ بحياته المادية، مغتبط بنشاطه ونتائجه، ولكنه يشعر بأن شيئًا ينقصه، وأن هذا الشيء هو الحب، أو قل هو المرأة التي تفهمه ويفهمها، وتُقدِّره ويُقدِّرها، وتشعر أن في الحياة شيئًا غير الطعام والشراب والنوم والزينة، وامرأته «شارلوت» لا تشعر بشيء من هذا، بل هي لا تقاسم زوجها نشاطه وعنايته بالعمل المادي، فالحياة عندها مقصورة على هذا الجزء الحيواني الذي رفهته الحضارة بألوان الترف.

الأسرتان إذن متشابهتان تشابهًا عكسيًّا: المرأة شقيَّة في إحداهما والرجل سعيد، والمرأة سعيدة في الأخرى والرجل شقيٌّ.

وفي القصر رجل آخر هذه الليلة خليق أن نُعنى به عناية ما؛ هو «موران»، صديق قديم لصاحب القصر، معنيٌّ بالفلسفة والبحث عن حياة النفس وظواهرها من الوجهة

الاجتماعية، اتصلت الفرقة بينه وبين صديقه أعوامًا، ثم أقبل يزوره ويقضي عنده أيامًا، ولنلاحظ أنه عالم قبل كل شيء لا يؤمن بالدين ولا يطمئن إلى أصوله.

ورجل آخر يجب أن نُعنى به أيضًا؛ وهو القسيس «بلوكان»، قسيس الناحية، وهو من رجال الدين المستنيرين الذين يستطيعون أن يوفقوا بين أصول الدين وأحكامه والحياة الحديثة وما تدعو إليه. كان قسيسًا في باريس، ولكنه أظهر شيئًا من الميل إلى الحياة الحديثة، فأنكر ذلك الأُسْقُف ونفاه عن باريس إلى هذه الناحية، فهو مقيم فيها منذ عشر سنين، يحب الناس ويحبونه، ويرضى عنهم ويرضون عنه، وهو مستنيرٌ حقًّا. انظر إليه يستخدم نوعًا من «الموتوسيكل» كلما انتقل من مكان إلى مكان، والناس يعجبون لذلك، والأسقفية تتبرم به؛ لأن استعمال هذا النوع من «الموتوسيكل» لون من ألوان البِدْع في ذلك الوقت، كما كان اتخاذ الأحذية الإفرنجية لونًا من ألوان البِدْع عند الأزهريين منذ خمسة عشر أو عشرين عامًا.

ثم في القصر رجلٌ آخر أقبل زائرًا أيضًا، وهو «سان فوان»، رجلٌ خفيف الروح، يفهم الحياة كما هي، ولكنه يبسم لها ويتقاضاها حظه من اللذة فيها، ضاحكًا أبدًا حتى حين لا يدعو شيء إلى الضحك.

ولعل من الخير أن أذكر لك هذا الرجل الآخر «كورزاك»، وهو جار أعزب يحب صاحبة القصر منذ سنين، وهو يتتبعها ويُلح عليها فتُطمِّعه وتمنِّيه دون أن تتجاوز ذلك إلى شيءٍ آخر، وهو شقي بهذا الحب الذي لا ينتهي إلى غايته، وهي سعيدة بهذا الحب الذي يمكنها من أن تعبث، ويشعرها بأن لجمالها سلطانًا على القلوب.

أتريد بعد هذا أن ألخص لك حوادث الفصل الأول؟ ولكن ما نفع هذا التلخيص وكل هذا الفصل إنما خصص ليعرض علينا أشخاص هذه القصة ومميزاتهم. لا ألخص لك إذن حوادث هذا الفصل، فلسنا في حاجة إلى هذا التلخيص، ولكنني لا أنسى أن أذكر أن هذا الفصل يشعرنا شعورًا قويًّا — ولكنه دقيق — بأن هناك شيئًا غير عادي، فنحن نرى «فلنتين» محزونة متأثرة، يأخذها نوع من الإغماء مرة أو مرتين، ونرى «فرسان» يهتم لذلك ويغتم له، ثم نراهما يتحدثان لحظة، فنفهم أن بينهما حبًّا، وأن هذا الحب هو مصدر ما نشهد عند «فلنتين» من حزن وضعف، ولا ينتهي السمر حتى يتفق «لمبير» مع أصحابه على أن يجتمعوا عنده للغداء إذا أصبحوا، فهو يريد أن يظهرهم على داره وأرضه وعلى مصنع الورق الذي يديره، والذي يستحق أن يرى لموقعه الطبيعي مشرفًا على سيل ينحط في قوة وعنف، مستمدًّا من هذا السيل قوة كهربائية هي التي تدير أدواته الضخمة.

فإذا كان الفصل الثاني، فنحن عند «لمبير»، وقد فرغ القوم من غدائهم، وأقبلوا على الحديث، وهم يعبثون إلا «فلنتين»؛ فهي كما كانت أمس محزونة كأنها ذاهلة، وقد دعاهم صاحب البيت ليشهدوا مصنعه، فهم يستعدون لذلك و«شارلوت» أشدهم استعدادًا؛ فهي تهيئ نفسها وتتزين وتريد أن تأخذ معها أدوات زينتها، فينكر عليها زوجها ذلك ويشتد بينهما خصام، نفهم منه أن الصلة بين الزوجين ليست من المودة واللين على ما ينبغي؛ فالرجل يكره من امرأته خفتها وإسرافها في الميل إلى الزينة، ولا سيما حين تذهب إلى مصنع فيه العمال الكثيرون الذين يشقون اليوم كله ليكسبوا ما يتبلغون به، والذين لا يضمرون الخير للأغنياء ولا للمترفين، وامرأته تزدري هذا كله وتسخر منه، ولا تجيب زوجها إلا لائمة أو مزدرية. وقد انصرفوا جميعًا إلا العاشقان «فلنتين» و«فرسان» فيبقيان، ولا يكادان يتحدثان حتى ننتهي إلى عقدة القصة في أقصى أطوارها من العنف والشدة، ولكنه انتهاء لم نفاجأ به؛ فقد أعددنا له الفصل الأول إعدادًا كافيًا. لا يكادان يتحدثان حتى يظهر حبهما قويًّا قد بلغ أقصى أطواره، وهما ضيقا الذرع بما يضطران إليه من التكتم والحذر والاحتياط، ولكن الأمر قد تجاوز ألم العاشقين، وضيق ذرعهما بالرقباء وبما يضطران إليه من حيلة، تجاوزا هذا كله إلى شيء آخر أشد منه ألمًا وأعظم منه خطرًا؛ فلفلنتين سرٌّ تريد أن تلقيه إلى صاحبها، وهي وجلة مشفقة على أن هذا السر قد نغص عليها الحياة وحرمها النوم، ويوشك أن ينغص عليها الحب أيضًا، وما يزال بها صاحبها حتى يفهم هذا السر، وهو أنها حامل، حامل ولا تشك في أن صاحبها مصدر هذا الحمل، فالصلة منقطعة بينها وبين زوجها منذ سنتين، وهي جزعة لهذا لأنها تقدر نتائجه، ونتائجه كثيرة خطرة كلها.

ماذا عسى أن يكون وقْع هذا النبأ في نفس صاحبها؟ أليس من المعقول أن يكون هذا الوقع سيئًا؛ لأنه ينغص الحياة والحب على هذا العاشق الذي لعله لم يكن يبتغي من الحب إلا لذة النفس والجسم خاليةً من كل شائبة معصومةً من هذه الصعاب التي تنغص الحياة، وتجعل احتمالها عسيرًا؟ فلهذا الرجل زوجه وله حياته الخاصة، وإنما كان هذا الحب لذيذًا محببًا إليه حين لم تكن تشعر به زوجه، ولم يكن يعرض حياته المنزلية للخطر، أما الآن فلن يستطيع هذا الحب أن يظل مكتومًا، ولا بد من أن يعرف غدًا أو بعد غدٍ. أفيسره هذا النبأ أم يسوءه؟ يسره من غير شك؛ فهو يحب ابتغاءً للذة أو التسلية لا إرضاءً للشهوة أو الهوى، وإنما يحب حقًّا، وأي نبأ يسعد له العاشق حقًّا إذا لم يسعد لمثل هذا النبأ؟ أليس هذا الحمل نتيجة لهذا الحب الذي يكبره ويحرص عليه؟

أليس صلة مادية ومعنوية قوية بينه وبين من يحب؟ هو سعيد مغتبط، وهو لا يُخفي سعادته واغتباطه، ولكنه لا يقدر النتائج الأخرى كما تقدرها هي، فماذا عسى أن يكون شأنه مع امرأته؟ وماذا عسى أن يكون شأنها مع زوجها؟ بل هو يقدر هذه النتائج، فهو لا يحفل بامرأته، ولا ينبغي أن تحفل هي بزوجها، وإنما ينبغي أن يستجيبا للطبيعة، وأن يخلص كل واحد منهما لصاحبه، يجب أن يطرح كل منهما رفيق حياته ومصدر شقائه وألمه، يجب أن يفرا إلى حيث يعيشان سعيدين، وإلى حيث يقفان حياتهما على هذا الحب السعيد، وعلى تربية هذا الطفل الذي سيقبل عليهما بعد أشهر.

يجب أن يفرَّا، وما أيسر الفرار، وما أحبه إليهما! ولكن هناك ما يمنع من الفرار، وهو لم يكن فكر في ذلك؛ هناك هذان الطفلان اللذان رزقتهما «فلنتين» من زوجها، هما ابناها، وهما ابناها بمقدار ما سيكون هذا الجنين ابنها أيضًا، وإذن فكيف تستطيع أن تفر مع عاشقها، وتترك ابنيها هذين؟! بدأ الجهاد إذن بين الحب والأمومة، فهي مضطرة إلى أن تختار؛ فإما أن تؤْثر حبيبها على ابنيها، وإما أن تؤثر ابنيها على هذا الحبيب، وهذا الجهاد هو الذي أظهرها لنا حزينة ذاهلة، وهو الذي عرَّضها للضعف وما يُعاودها من الإغماء. لم تكن تبتغي بهذا الحب لذة ولا سلوى، وإنما كانت تحب صاحبها حقًّا كما كان يحبها حقًّا، وإذن فاضطرابها شديد، وترددها لا حدَّ له، وصاحبها ليس أقل منها ترددًا واضطرابًا؛ فهو لا يحبها حب الأَثِر الذي يبحث عن سعادته وحده، وإنما يحبها لنفسه، ويحبها من أجلها أيضًا، وهو يشفق عليها من فراق ابنيها، ويتردد في حملها على هذا الفراق، ولكن ما حل هذه المشكلة؟ وأين السبيل للخروج من هذا المأزق؟

وهناك عقدة أخرى، فهبها أقامت ولم تفر، فما موقفها بإزاء زوجها، والصلة الزوجية منقطعة بينها وبينه؟ أتظهره على هذا الحمل؟ وإذن فهي الفضيحة والطلاق وحرمانها أولادها وعشرتهم والإشراف على تربيتهم! أم تخفيه وتخادعه وتتقرب منه حتى تتجدد الصلة بينهما وحتى يخيل إليه أن الجنين ابنه؟ وإذن فهو النفاق والتضليل، وهو قبل كل شيء إنكار هذا الحب والتضحية به، وهل تملك التضحية بهذا الحب؟ أترى إلى العقدة وإلى أي حدٍّ انتهت من الإحكام؟ ومع ذلك فلا بد أن تحل، ولن يحلها إلا التفكير والتروية، فسيفكران وسيرويان وسيلتقيان غدًا ليفضى كل منهما إلى صاحبه بنتيجة الرويَّة والتفكير.

وقد أقبل القسيس يلقي درسه على الطفلين، وأقبل «موران» تاركًا أصحابه في شيء من اللهو، ومضت «فلنتين» مع القسيس تشهد درس ابنيها، فخلا الصديقان وأخذا

يتحدثان، وما أسرع ما انتهى بهما الحديث إلى هذا الموضوع! فليس «موران» بالرجل الغافل الذي يخفى عليه مثل هذا الحب، بل قد أحسه ثم استيقنه، وهو الآن يلوم صديقه على خيانته امرأته وصديقه، ثم لا يلبث أن يعذر هذا الصديق، فهو يعترف بأن امرأته لا تستطيع أن تسعده، وهو يعترف بأن «لمبير» لا يستطيع أن يسعد «فلنتين»، وهو يعترف بأن هذين العاشقين قد خلقا ليتحابا، وليكون كل منهما مصدر سعادة الآخر، وقد كان ما لم يكن بد من أن يكون؛ فما المخرج من هذا المأزق؟

يسأله صديقه هذا السؤال ويذكر له أنه قادر على أن يجد لهما مخرجًا؛ فهو باحث ماهر، وهو فيلسوف ينشر الكتب ويدرس فيها أخلاق الناس وصلاتهم؛ فليفرض أنه يكتب كتابًا، وأنه بإزاء معضلة فلسفية يجب أن تحل، ولكن صديقه يبتسم، فهو ليس بإزاء معضلة من هذه المعضلات التي تحل في الكتب، التي يستطيع العقل الإنساني أن يتخذها رياضة ونوعًا من أنواع التمرين، وإنما هو بإزاء معضلة من معضلات الحياة التي لا تحلها إلا الحياة، وكيف يستطيع أن يحل هذه المعضلة دون أن يؤذي ناسًا من حقهم ألا ينالهم الأذى؟! ثم يمضي في حديثه وتحليله وحوار صاحبه، فإذا استوثق أن هذا الحب الذي جمع بين هذين العاشقين ليس عبثًا ولا لهوًا، وإنما هو من هذا الحب النادر الذي لا نلقاه كثيرًا في الحياة، تشجَّع ونصح لصاحبه بالفرار مع حبيبته، فليضحِّ إذن بامرأته؛ فهي تستحق أن يُضحَّى بها، وهي لا تفهم الحياة ولا تقدرها، وهي لا تفهم الواجب ولا تقدره. إنها تكره النسل، ولو رزقت زوجها ولدًا لصرفته عن الحب إلى العناية بابنه، ثم هي لن يشقيها هذا الفرار فستسلو عن زوجها وستستأنف الحياة السعيدة في باريس. ولتضح «فلنتين» بزوجها؛ فهو يستحق أن يُضَحَّى به؛ فهو لا يفهم الحياة ولا الحب ولا الزواج، وإنما يرد هذا كله إلى مسألة مالية، ومن الحق لكل إنسان أن يسعد، وإذن فمن الحق لهذين العاشقين أن يسعدا بحبهما، فليلتمسا هذه السعادة حيث يجدانها. والطفلان، ماذا يصنع بهما؟ ثم يقبل القوم جميعًا فيستأنفون حديثهم وعبثهم وكأن شيئًا لم يكن.

فإذا كان الفصل الثالث، فنحن أمام بيت حقير، يسكنه رجل من العمال، ومعه امرأته المتقدمة في السن أيضًا، وقد أوت إلى هذا البيت خادم كانت عند «فلنتين»، أغواها أحد العمال فحملت وأشرفت على الوضع وظهر أمرها فطردها «لمبير»، وأشفقت عليها «فلنتين» فآوتها إلى هذه العجوز، وأخذت تنفق عليها وتتعدها حتى يتم الوضع وتبرأ من آلامه. وقد

أقبل القسيس يتعهد هذه الفتاة، ونفهم أن قد رزقت صبيًّا، وأنها بخير، وتقبل «فلنتين» تعود الفتاة، ثم تخلو إلى القسيس أمام البيت ويتحدثان، فنفهم أن «فلنتين» ذهبت إلى القسيس فاعترفت له بأمرها وطلبت إليه المشورة، هي إذن تستشير القسيس كما أن صاحبها يستشير الفيلسوف، والقسيس يشير عليها بعكس ما أشار به الفيلسوف على صاحبها؛ يشير عليها بأن تقطع الصلة بينها وبين حبيبها، وأن تستأنف الحياة الزوجية وأن تخادع زوجها حتى يخيل إليه أن الجنين ابنه، فإذا نفرت من هذه المذلة وكرهت هذا النفاق وأنكرته، أجابها القسيس في عنف ورفق معًا أنه لا ينكر أن في هذا مذلة ونفاقًا، ولكنه يعلم أنها قد اقترفت إثمًا عظيمًا حين خانت زوجها، وأن من الحق أن تحتمل الألم في سبيل هذه الخيانة، وأن تُكفر بالذل والهوان عن هذه الخطيئة. ويشتد بينهما الحوار على هذا النحو؛ فإذا هي تنكر ما يدعوها إليه القسيس مخلصة، وإذا القسيس يلح عليها في ذلك مخلصًا، فإذا ذكرت الفرار أو الطلاق أنكرهما القسيس إنكارًا شديدًا، فالكنيسة لا تبيح الطلاق، وهي تقبل دونه كل شيء؛ لأن الكنيسة تعلن أن الزواج عقدة أحكمها الله، وما أحكم الله فليس له انفصام.

– وإذن فالكنيسة تُضحي بسعادتي وحياتي وكرامتي وعرضي، وهي تُبيح لي الفجور والإثم اجتنابًا للطلاق؟

– نعم! وذلك هو الخير للإنسانية، فنحن نشهد آثار العلم والحضارة الحديثة وعملها في تفكيك العُرَى وقطع الصلات حتى كادت الأسرة ألا توجد، فلو أبحنا الطلاق، فماذا عسى أن تكون النتيجة؟

لا يقنعها ولا تقنعه، وقد أقبل القوم جميعًا وكانوا في الصيد، ثم كانت أحاديث لا تعنينا، وانصرفوا وتركوا «فلنتين» وحدها، فتتقدم قليلًا فإذا هي مشرفةٌ على السيل من مكان مرتفع شاهق، وهي مضطربة ذاهلة قد أخذها ما هي فيه من تفكير، وإذا عاشقها قد أقبل فيدعوها، فكأنها تفيق من نوم، وهي تُلقي نفسها بين ذراعيه، ثم يتحدثان، فتقص عليه ما كان من مشورة القسيس، فيظهر أنه لا ينتظر من القسيس إلا هذه المشورة، فالكنيسة ورجالها لا يقدرون الفرد ولا شخصيته ولا سعادته ولا عواطفه، وإنما هم منصرفون إلى عقائدهم يضحون في سبيلها بكل شيء، وهم يعتقدون أن في ذلك الخير، وهو مشفقٌ يخشى أن تكون متأثرة بمشورة القسيس، وفي الحق أنها ليست متأثرة بمشورة القسيس، فلن تستطيع أن تُذعن لهذا النفاق، ولا أن ترضى هذه الذلة، وفي الحق أيضًا أنها ليست مطمئنة للفرار، فلن تستطيع أن تترك ابنيها، فيذكر لها صاحبها هذا

الجنين، وأنها قد تجد فيه سلوة، فتجيبه: كلا، فما كان أحد الأبناء ليسلي عن الآخرين. ويظهر الدهش، فهذا الجنين نتيجة الحب، وهذان الطفلان نتيجة القسوة والعنف، فمن المعقول أن تُؤثره عليهما، ولكن الأمومة لا تفرق بين الأبناء إلى هذا الحد، وليس يعنيها أن يكون مصدرهم الحب أو غير الحب، وإنما يعنيها أن يكون هناك ابنٌ خليقٌ بالعطف والحنو؛ ولكن الحوار قد اشتد بينهما، وأخذ الحنان يغلب عليه قليلًا قليلًا حتى صار حنانًا كله، وهو يضمها إليه ويستعطفها ويتلطف لها.

وقد أخذت حجج الأمومة تضعف أمام حجج الحب، وإذا هي مستسلمة قد قبلت ما يدعوها إليه من الفرار. سيفرَّان إذن إذا كان الغد، وسيلتقيان في المحطة إذا كانت الساعة التاسعة.

فإذا كان الفصل الرابع فنحن في بيت «لمبير» حيث كنا في الفصل الثاني، وقد أقبلت الخادم فأنبأت أن الطبيب يستأذن، فيأذن لمبير للطبيب، ويأمر الخادم أن تنبئ سيدتها بمكانه، وأنه صاعدٌ ليراها. وقد دخل الطبيب وأخذ يتحدث إليه «لمبير»، ففهمنا أن «فلنتين» لم تنم ليلتها، وأنه يصف للطبيب مرضها واضطرابها وحزنها وهذا الإغماء الذي يعاودها، فيقول الطبيب: لعل من الحق أن تغتبط بهذا؛ فهو من إشارات الحمل. ولكن «لمبير» يجيبه بأنه واثقٌ كل الثقة أن ليست هذه إشارات حملٍ؛ فلديه ما يحمله على هذه الثقة. وإذا «فلنتين» مقبلة، لم تُرد أن يصعد إليها الطبيب؛ لأنها ليست في حاجة إلى الطبيب، ولأن زوجها دعا الطبيب دون أن يستشيرها. وقد انصرف الطبيب، ولم يفحصها، ولم يتبين من أمرها شيئًا؛ لأنها أبت أن تنبئه بشيء، وتخلو إلى زوجها فيكون بينهما حديث آية في الأحاديث، تظهر فيه العواطف المختلفة، والميول المتباينة المتضاربة، يكون عتاب من «فلنتين» لزوجها فلا يفهم منه شيئًا. تذكر له أنها لم تكن سعيدة، وأنها لم تلقَ منه ما كانت تأمل، وأنها لم تحْببه، وأنه لم يحبَّها، فلا يفهم من هذا شيئًا؛ لأنه لم يتزوج إلا وهو يعلم أنه لا يحب امرأته، وأن امرأته لا تحبه، وأن الزواج شركة الغرض منها تنمية الثروة وإيجاد الولد، وقد نمَّى الثروة وقد وجد الولد، ففيم تطمع امرأته؟ وماذا تريد؟ ومهما تذكر له من الحب واللين والحنان، فهو لا يجيبها إلا ساخرًا مزدريًا، ولكنها قد أنبأته أنها التمست عند رجل آخر ما لم تجد عند زوجها، وأنها أحبت رجلًا وأحبها هذا الرجل، وكانت بينهما صلة! وإذا هو مغضبٌ، ولكنه يملك نفسه. هو لا يحب إمرأته؛ فلا يعنيه أن تكون قد خانته، ولكنه يحتفظ بالقوانين والعادات الموروثة، فلا يستطيع أن

يمسك هذه المرأة في بيته ولا سيما حين أنبأته أنها حامل، وقد عرف من تحب، وهمَّ أن يذهب إليه ليخاصمه، فتنبئه بأنه لن يجده، وبأنهما كانا قد أزمعا الفرار.

– وما يمنعكما منه؟

– لا أستطيع أن أترك ابنيَّ، وقد أتيتُ ذليلةً ضارعة مستعطفة، أسألك ألا تتركني، وألا تُفرق بيني وبين هذين الطفلين، وقد كنت أستطيع أن أخادعك وأكذب عليك وأخفي عليك كل شيء، ولكني أبيت هذا الخداع وصارحتك، فلا تفرق بيني وبين ابنيَّ، ولن يُغيِّرَ هذا من عيشتنا شيئًا؛ فالصلة بيننا منقطعة منذ حينٍ طويل، وستظل منقطعة أيضًا، لا تفرق بين الأم وابنيها …

ولكنه يأبى أشد الإباء؛ يأبى لأن هذه المرأة قد انحطت بهذه الخيانة، فهي ليست أهلًا لأنْ تجاور ابنيه أو تعاشرهما. ثم هو لن يسمح بأن يكون هذا الجنين ابنًا له أمام القانون وأمام الناس، ولا يسمح بأن يكد ويعمل ليرزق هذا الطفل الذي ليس له، ولا يسمح بأن يعتقد ابناه أن هذا الطفل أخوهما لأب وأم. يجب إذن أن ترحل، وهي إذا لم تفعل مختارة فستطرد من البيت طردًا، وليس إلى تغيير رأيه من سبيل.

هي مذعنة لهذا الأمر تريد أن تذهب، وتريد أن تودع ابنيها، ولكنه يأبى أن تخلو إليهما فيأمر بالطفلين فتحضرهما الخادم، وتودِّعهما أمهما باكيةً وهما يبكيان، وتنصرف.

وقد خلا الطفلان إلى أبيهما، فأمرهما أن ينتحيا ناحية ويلهوا في هدوء، فهما ينظران في كتاب، وهو إلى مكتبه يكتب. وتمضي على ذلك دقائق، وإذا رجل من العمال يُقبل مسرعًا مضطربًا كأنْ قد حدثَ حدثٌ، وقد حدثَ حدثٌ بالفعل، فأسرع «لمبير» وأمر بالطفلين فأُقصيا عن البيت، وخلا المسرح لحظة، ثم يقبل القوم الذين رأيناهم في الفصول الماضية وكانوا على موعد مع أهل البيت، فإذا لم يجدوا أحدًا أنكروا ذلك، وأخذوا يبحثون في أعلى البيت وأسفله، ثم يندبون من بينهم من يذهب ليستقصي الأمر، فيمضي «سان فوان» ويعود مضطربًا مذعورًا ينبئ بأن «فلنتين» قد سقطت في السيل حيث الأداة الكهربائية، فهي معلقة في العجلة من ثيابها بعد أن مزقتها تمزيقًا، وسيحمل جسمها بعد حين.

أما «شارلوت» فلا تكاد تسمع هذا النبأ حتى تذعر، وتريد أن تنصرف؛ لأنها تكره أن ترى هذه الجثة. وقد انصرفت مع «سان فوان»، وخلا الفيلسوف إلى القسيس، فهما يتحاوران وينتظران الجثة.

وهل أترجم لك الحوار؟ أم هل ألخصه؟ ولِمَ أترجمه أو ألخصه؟ وما نفع هذه الترجمة أو هذا التلخيص؟ الفيلسوف يدافع عن مشورته الفلسفية، والقسيس يدافع عن

مشورته الدينية، وكلاهما مخلصٌ في دفاعه، وكلاهما غير مقنع لصاحبه، وكيف يستطيع أحدهما أن يقنع الآخر؟! فإذا عجز الدين عن أن يُوفق بين سعادة الناس ومنافعهم، فليست الفلسفة أقل عجزًا منه عن التوفيق بين هذه السعادة وهذه المنافع؛ ذلك لأن في الحياة عقدًا ليس إلى حلها من سبيل. وهما يتحاوران والحوار يشتد بينهما، ولكن حركة تدنو، وإذا القسيس يطلب إلى صاحبه الصمت، ويشير بيده إلى قومٍ يدنون وقد حملوا الجثة.

مايو سنة ١٩٢٤